سورة آل عمران

١ـ **ووجه تسميتها بسورة آل عمران** أنها ذكرت فيها فضائل آل عمران وهو عمران بن ماتان أبو مريم، وآله هم زوجه حنة وأختها زوجة زكريا النبي، وزكريا كافل مريم؛ إذ كان أبوها عمران توفي وتركها حملاً؛ فكفلها زوج خالتها.

ووصفها رسول الله ﷺ بالزهراء في حديث أبي أمامة المتقدم.

وذكر الآلوسي أنها تسمى: الأمان، والكنز، والمجادلة، وسورة الاستغفار. ولم أره لغيره، ولعله اقتبس ذلك من أوصاف وصفت بها هذه السورة مما ساقه القرطبي في المسألة الثالثة والرابعة من تفسير أول السورة.

وهذه السورة نزلت بالمدينة بالاتفاق بعد سورة البقرة، فقيل: إنها ثانية لسورة البقرة على أن البقرة أول سورة نزلت بالمدينة.

وقيل: نزلت بالمدينة سورة المطففين أولاً، ثم البقرة، ثم نزلت سورة آل عمران، ثم نزلت الأنفال في وقعة بدر.

وهذا يقتضي: أن سورة آل عمران نزلت قبل وقعة بدر؛ للاتفاق على أن الأنفال نزلت في وقعة بدر، ويبعد ذلك أن سورة آل عمران اشتملت على التذكير بنصر المسلمين يوم بدر، وأن فيها ذكر يوم أحد، ويجوز أن يكون بعضها نزل متأخراً. ٣/١٤٣ـ١٤٤

٢ـ **واشتملت هذه السورة من الأغراض على:** الابتداء بالتنويه بالقرآن، ومحمدﷺ، وتقسيم آيات القرآن، ومراتبِ الأفهام في تلقّيها، والتنويهِ بفضيلة

الإسلام، وأنه لا يَعْدِلُه دين، وأنه لا يُقْبَلُ دينٌ عند الله بعد ظهور الإسلام، غير الإسلام، والتنويهِ بالتوراةِ والإنجيل، والإيماء إلى أنهما أنزلا قبل القرآن؛ تمهيداً لهذا الدين؛ فلا يَحِقُّ للناس أن يَكْفُروا به، وعلى التعريفِ بدلائل إلهية الله -تعالى- وانفراده، وإبطالِ ضلالة الذين اتخذوا آلهة من دون الله: مَنْ جعلوا له شركاء، أو اتخذوا له أبناءً، وتهديدِ المشركين بأن أمرَهم إلى زوالٍ، وألا يغرهم ما هم فيه مِنَ البذخ، وأن ما أعد للمؤمنين خيرٌ من ذلك، وتهديدِهم بزوال سلطانهم، ثم الثناءِ على عيسى -عليه السلام- وآل بيته، وذكرِ معجزةِ ظهورِه، وأنه مخلوق لله.

وذِكْرُ الذين آمنوا به حقاً، وإبطالُ إلهية عيسى، ومِنْ ثَمَّ أفضى إلى قضية وفد نجران ولجَاجتهم، ثم محاجةِ أهل الكتابين في حقيقة الحنيفية، وأنهم بُعَدَاءُ عنها، وما أَخَذَ اللهُ مِنَ العهد على الرسل كلِّهم: أن يؤمنوا بالرسولِ الخاتَم، وأن الله جعل الكعبةَ أولَ بيتٍ وُضِعَ للناس، وقد أعاد إليه الدينَ الحنيفَ كما ابتدأه فيه، وأوجب حَجَّهَ على المؤمنين، وأظهر ضلالاتِ اليهودِ، وسوءَ مقالتِهم، وافتراءَهم في دينهم، وكتمانَهم ما أنزل إليهم، وذكَّر المسلمين بنعمته عليهم بدين الإسلام، وأَمَرهم بالاتحاد والوفاق، وذكَّرهم بسابق سوءِ حالهم في الجاهلية، وهَوَّنَ عليهم تظاهرَ معانديهم من أهل الكتاب والمشركين، وذكَّرهم بالحذر من كيدهم وكيدِ الذين أظهروا الإسلامَ ثم عادوا إلى الكفر؛ فكانوا مثلاً لتمييز الخبيث مِنَ الطيب، وأَمَرهم بالاعتزاز بأنفسهم، والصبرِ على تلقي الشدائد، والبلاء، وأذى العدو، ووعدهم على ذلك بالنصر والتأييد وإلقاء

الرعب منهم في نفوس عدوهم، ثم ذكّرهم بيوم أحد، ويوم بدر، وضرب لهم الأمثال بما حصل فيهما، ونوَّه بشأن الشهداء من المسلمين، وأمر المسلمين بفضائل الأعمال: من بذل المال في مواساة الأمة، والإحسان، وفضائل الأعمال، وترك البخل، ومذمة الربا، وختمت السورة بآيات التفكير في ملكوت الله. ١٤٤/٣ـ١٤٥

٣ـ **والتوراة**: اسم للكتاب المنزل على موسى ـعليه السلامـ.

وهو اسم عبراني أصله طورا بمعنى الهدي، والظاهر أنه اسم للألواح التي فيها الكلمات العشر التي نزلت على موسى ـعليه السلامـ في جبل الطور؛ لأنها أصل الشريعة التي جاءت في كتب موسى؛ فأطلق ذلك الاسم على جميع كتب موسى.

واليهود يقولون: سفر طورا؛ فلما دخل هذا الاسم إلى العربية أدخلوا عليه لام التعريف التي تدخل على الأوصاف والنكرات؛ لتصير أعلاماً بالغلبة: مثل العقبة.

ومن أهل اللغة والتفسير من حاولوا توجيهاً لاشتقاقه اشتقاقاً عربياً، فقالوا: إنه مشتق من الوَرْي وهو الوقد، بوزن تَفعَلة أو فَوْعَلَة، وربما أقدمهم على ذلك أمران: أحدهما: دخول حرف التعريف عليه، وهو لا يدخل على الأسماء العجمية، وأجيب بأن لا مانع من دخولها على المعرب كما قالوا: الإسكندرية، وهذا جواب غير صحيح؛ لأن الإسكندرية وزن عربي؛ إذ هو نسب إلى إسكندر، فالوجه في الجواب أنه إنما ألزم التعريف؛ لأنه معرب عن اسم بمعنى

الوصف اسم علم فلما عربوه ألزموه اللام لذلك.

الثاني: أنها كتبت في المصحف بالياء، وهذا لم يذكروه في توجيه كونه عربياً، وسبب كتابته كذلك الإشارة إلى لغة إمالته.٣/١٤٨ـ١٤٩

٤ـ **وأما الإنجيل**: فاسم للوحي الذي أوحي به إلى عيسى ـعليه السلامـ فجمعه أصحابه.

وهو اسم معرب قيل من الرومية وأصله (إثانجيليوم) أي الخبر الطيب؛ فمدلوله مدلول اسم الجنس، ولذلك أدخلوا عليه كلمة التعريف في اللغة الرومية، فلما عربه العرب أدخلوا عليه حرف التعريف.

وذكر القرطبي عن الثعلبي أن الإنجيل في السريانية وهي الآرامية (أنكليون).

ولعل الثعلبي اشتبه عليه الرومية بالسريانية؛ لأن هذه الكلمة ليست سريانية وإنما لما نطق بها نصارى العراق وظنها سريانية، أو لعل في العبارة تحريفاً وصوابها اليونانية وهو في اليونانية (أووانيليون) أي اللفظ الفصيح.

وقد حاول بعض أهل اللغة والتفسير جعله مشتقاً من النجل وهو الماء الذي يخرج من الأرض، وذلك تعسف ـأيضاًـ.

وهمزة الإنجيل مكسورة في الأَشْهَرِ؛ ليجري على وزن الأسماء العربية؛ لأن إفعيلاً موجود بقلة مثل: إبزيم.

وربما نُطق به بفتح الهمزة، وذلك لا نظير له في العربية. ٣/١٤٩

٥ـ **وقد اختلف علماء الإسلام في تعيين المقصود من المحكمات والمتشابهات على أقوال**: مرجعها إلى تعيين مقدار الوضوح والخفاء.

فعن ابن عباس: أن المحكم مالا تختلف فيه الشرائع كتوحيد الله -تعالى- وتحريم الفواحش، وذلك ما تضمنته الآيات الثلاث من أواخر سورة الأنعام ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ والآيات من سورة الإسراء ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ وأن المتشابهَ المجملاتُ التي لم تُبَيَّن كحروف أوائل السور.

وعن ابن مسعود، وابن عباس -أيضاً-: أن المحكم ما لم ينسخ، والمتشابه المنسوخ وهذا بعيد عن أن يكون مراداً هنا؛ لعدم مناسبته للوصفين ولا لبقية الآية.

وعن الأصم: المحكم ما اتضح دليله، والمتشابه ما يحتاج إلى التدبر، وذلك كقوله -تعالى-: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ فأولها محكم، وآخرها متشابه.

وللجمهور مذهبان: أولهما: أن المحكم ما اتضحت دلالته، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه، ونسب هذا القول لمالك، في رواية أشهب من جامع العتبيَّة، ونسبه الخفاجي إلى الحنفية، وإليه مال الشاطبي في الموافقات.

وثانيهما: أن المحكمَ الواضحُ الدلالةِ، والمتشابهَ الخفيُّها، وإليه مال الفخر؛ فالنص والظاهر هما المحكم؛ لاتضاح دلالتهما، وإن كان أحدهما أي الظاهر يتطرقه احتمال ضعيف، والمجمل والمؤول هما المتشابه؛ لاشتراكهما في خفاء الدلالة وإن كان أحدهما -أي المؤول- دالاً على معنى مرجوح، يقابله معنى راجح، والمجمل دالاً على معنى مرجوح يقابله مرجوح آخر، ونسبت هذه الطريقة إلى الشافعية.

قال الشاطبي: فالتشابه: حقيقي، وإضافي؛ فالحقيقي: مالا سبيل إلى فهم معناه، وهو المراد من الآية، والإضافي: ما اشتبه معناه؛ لاحتياجه إلى مراعاة

دليل آخر .

فإذا تقصَّى المجتهدُ أدلةَ الشريعةِ وجد فيها ما يبين معناه ، والتشابه بالمعنى الحقيقي قليل جداً في الشريعة ، وبالمعنى الإضافي كثير.٣/١٥٥-١٥٦

٦ـ **وقد دلت هذه الآية على أن من القرآن محكماً ومتشابهاً** ، ودلت آيات أخر على أن القرآن كله محكم ، قال ـتعالىـ : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾ .

وقال : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ .

والمراد أنه أحكم وأتقن في بلاغته ، كما دلت آيات على أن القرآن كله متشابه ، قال ـتعالىـ : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً ﴾ .

والمعنى أنه تشابه في الحسن والبلاغة والحقيَّة ، وهو معنى ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾ .

فلا تعارض بين هذه الآيات : لاختلاف المراد بالإحكام والتشابه في مواضعها ، بحسب ما تقتضيه المقامات.٣/١٥٦

٧ـ **وليس من المتشابه ما صرح فيه بأنا لا نصل إلى علمه** كقوله : ﴿ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ ولا ما صرح فيه بجهل وقته كقوله ﴿ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً ﴾ .

وليس من المتشابه ما دل على معنى يعارض الحمل عليه دليل آخر منفصل عنه؛ لأن ذلك يرجع إلى قاعدة الجمع بين الدليلين المتعارضين ، أو ترجيح أحدهما على الآخر ، مثل قوله ـتعالىـ خطاباً لإبليس : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ الآية في سورة الإسراء مع ما في الآيات المقتضية ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ و﴿ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ .٣/١٥٨-١٦٠

٨ـ **فزيغ القلب يتسبب عن عوارض تعرض للعقل:** من خلل في ذاته، أو دواع من الخلطة أو الشهوة، أو ضعف الإرادة، تَحُولُ بالنفس عن الفضائل المتحلية بها إلى رذائل كانت تهجس بالنفس، فتذودها النفس عنها بما استقر في النفس من تعاليم الخير المسماة بالهدى.

ولا يدري المؤمن، ولا العاقل، ولا الحكيم، ولا المهذب: أَيَّة ساعة تحل فيها به أسباب الشقاء، وكذلك لا يدري الشقي، ولا المنهمك، الأَفِن: أَيَّة ساعةٍ تَحُفُّ فيها به أسباب الإقلاع عما هو مُتَلَبِّس به من تغير خَلْق، أو خُلُق، أو تبدل خليط، قال ـتعالىـ: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾.

ولذا كان دأبُ القرآن قَرْنَ الثناءِ بالتحذير، والبشارة بالإنذار. ١٧٠/٣

٩ـ وقوله: ﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ﴾ طلبوا أثر الدوام على الهدى وهو الرحمة في الدنيا والآخرة، ومنع دواعي الزيغ والشر.

وجُعلتِ الرحمةُ من عند الله؛ لأن تيسيرَ أسبابِها، وتكوينَ مهيئاتها بتقدير الله؛ إذ لو شاء الله لكان الإنسان مُعَرَّضاً لنزول المصائب والشرور في كل لمحة؛ فإنه محفوفٌ بموجودات كثيرة، حية وغير حية، هو تلقائها في غاية الضعف لولا لطف الله به بإيقاظ عقله؛ لاتقاء الحوادث، وبإرشاده لاجتناب أفعال الشرور المهلكة، وبإلهامه إلى ما فيه نفعه، وبجعل تلك القوى الغالبة له قوى عمياء لا تهتدي سبيلاً إلى قصده، ولا تصادفه إلا على سبيل الندور.

ولهذا قال ـتعالىـ: ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾.

ومن أجلى مظاهرِ اللطفِ أحوالُ الاضطرارِ والالتجاءِ، وقد كنت قلت

كلمة : اللطف عند الاضطرار. ٣/ ١٧٠

١٠ـ **وكان إصلاحُ الاعتقادِ أهمَّ ما ابتدأ به الإسلام**، وأكثر ما تعرض له؛ وذلك لأن إصلاح الفكرة هو مبدأ كل إصلاح؛ ولأنه لا يرجى صلاح لقوم تلطَّخت عقولهم بالعقائد الضالة، وخسئت نفوسهم بآثار تلك العقائدِ المثيرةِ خوفاً من لا شيء، وطمعاً في غير شيء.

وإذا صلح الاعتقاد أمكن صلاح الباقي؛ لأن المرء إنسان بروحه لا بجسمه.

ثم نشأ عن هذا الاعتقاد الإسلامي: عزة النفس، وأصالة الرأي، وحرية العقل، ومساواة الناس فيما عدا الفضائل.

وقد أكثر الإسلامُ شرحَ العقائدِ إكثاراً لا يشبهه فيه دين آخر، بل إنك تنظر إلى كثير من الأديان الصحيحة؛ فلا ترى فيها من شرح صفات الخالق إلا قليلاً. ٣/ ١٩٤

١١ـ **وحبط الأعمال**: إزالة آثارها النافعة من ثواب ونعيم في الآخرة، وحياة طيبة في الدنيا.

وإطلاق الحبط على ذلك تمثيل بحال الإبل التي يصيبها الحبط وهو انتفاخ في بطونها من كثرة الأكل، يكون سبب موتها، في حين أكلت ما أكلت للالتذاذ به. ٣/ ٢٠٧

١٢ـ **وآدم اسم أبي البشر عند جميع أهل الأديان**، وهو عَلَمٌ عليه وضعه لنفسه بإلهام من الله ـتعالى ـ كما وضع مبدأ اللغة.

ولا شك أنَّ مِنْ أول ما يحتاج إليه هو وزوجه أن يعبر أحدهما للآخر، وظاهر

القرآن أن الله أسماه بهذا الاسم مِنْ قَبْلِ خروجه من جنة عدن ولا يجوز أن يكون اسمه مشتقاً من الأدمة، وهي اللون المخصوص؛ لأن تسمية ذلك اللون بالأدمة خاص بكلام العرب؛ فلعل العرب وضعوا اسم ذلك اللون أخذاً من وصف لون آدم أبي البشر. ٣/٢٢٩

١٣ـ **والسيد فيعل**: من ساد يسود إذا فاق قومه في محامد الخصال حتى قدموه على أنفسهم، واعترفوا له بالفضل.

فالسؤدد عند العرب في الجاهلية يعتمد كفايةَ مهماتِ القبيلة والبذل لها، وإتعاب النفس لراحة الناس، قال الهذلي:

وإن سيادة الأقوام فاعلم ... لها صعداء مطلبها طويل

أترجو أن تسود ولن تُعَنَّى ... وكيف يسود ذو الدعة البخيل

وكان السؤدد عندهم يعتمد خلالاً مرجعها إلى إرضاء الناس على أشرف الوجوه، وملاكه بذل الندى، وكف الأذى، واحتمال العظائم، وأصالة الرأي، وفصاحة اللسان.٣/٢٤٠

١٤ـ **والسيد في اصطلاح الشرع**: من يقوم بإصلاح حال الناس في دنياهم وأخراهم معاً، وفي الحديث: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**» وفيه: «**إن ابني هذا سيد**» يعني الحسن بن علي؛ فقد كان الحسن جامعاً خصال السؤدد الشرعي، وحسبك من ذلك أنه تنازل عن حق الخلافة؛ لجمع كلمة الأمة، ولإصلاح ذات البين.

وفي تفسير ابن عطية عن عبد الله بن عمر، أنه قال: «ما رأيت أحداً أسود من معاوية بن أبي سفيان، فقيل له: وأبو بكر وعمر قال: هما خير من معاويةَ،

ومعاويةُ أسود منهما».

قال ابن عطية: «أشار إلى أن أبا بكر وعمر كانا من الاستصلاح وإقامة الحقوق بمنزلة هما فيها خير من معاوية، ولكن مع تَتَبُّعِ الجادةِ، وقلةِ المبالاة برضا الناس ينخرم فيه كثير من خصال السؤدد.

ومعاوية قد برز في خصال السؤدد التي هي الاعتمال في إرضاء الناس على أشرف الوجوه، ولم يواقع محذوراً». ٣/٢٤٠ـ٢٤١

١٥ـ **والوجيه ذو الوجاهة وهي:** التقدم على الأمثال، والكرامة بين القوم، وهي وصف مشتق من الوجه للإنسان وهو أفضل أعضائه الظاهرة منه، وأجمعها لوسائل الإدراك وتصريف الأعمال. ٣/٢٤٦

١٦ـ **والكهل:** من دخل في عشرة الأربعين وهو الذي فارق عصر الشباب، والمرأة شَهْلَة بالشين، ولا يقال: كَهْلَة كما لا يقال: شهل للرجل إلا أن العرب قديماً سموا شهلاً مثل شهل بن شيبان الملقب: الفِند الزماني؛ فدلنا ذلك على أن الوصف أميت.

وقد كان عيسى ـعليه السلامـ حين بعث ابن نَيِّفٍ وثلاثين. ٣/٢٤٧

١٧ـ **والقصص ـبفتح القاف والصادـ:** اسم لما يقص، يقال: قص الخبر قَصّاً إذا أخبر به، والقص أخص من الإخبار؛ فإن القص إخبار بخبر فيه طول وتفصيل، وتسمى الحادثة التي من شأنها أن يخبر بها قصة بكسر القاف أي مقصوصة أي مما يقصها القصاص، ويقال للذي ينتصب لتحديث الناس بأخبار الماضينَ قصَّاص بفتح القاف.

فالقصص اسم لما يُقَصُّ، قال ـ تعالى ـ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾.

وقيل: هو اسم مصدر وليس هو مصدراً، ومن جرى على لسانه من أهل اللغة أنه مصدر فذلك تسامح من تسامح الأقدمين؛ فالقَصُّ بالإدغام مصدر، والقصص بالفك اسم للمصدر واسم للخبر المقصوص. ٣/٢٦٧

١٨ـ **والبر**: كمال الخير وشموله في نوعه؛ إذ الخير قد يعظم بالكيفية، وبالكمية، وبهما معاً؛ فبذل النفس في نصر الدين يعظم بالكيفية في ملاقاة العدو الكثير بالعدد القليل، وكذلك إنقاذ الغريق في حالة هول البحر، ولا يتصور في مثل ذلك تعدد[1] وإطعام الجائع يعظم بالتعدد، والإنفاق يعظم بالأمرين جميعاً، والجزاء على فعل الخير إذا بلغ كمال الجزاء وشموله كان براً ـ أيضاً ـ. ٥/٤

١٩ـ و﴿**بكة**﴾: اسم مكة، وهو لغة بإبدال الميم باء في كلمات كثيرة عدت من المترادف: مثل لازب في لازم، وأربد وأرمد أي في لون الرماد.

وفي سماع ابن القاسم من العُتَبِية عن مالك: أن بكة بالباء اسم موضع البيت، وأن مكة بالميم اسم بقية الموضوع؛ فتكون باء الجر هنا لظرفية مكان البيت خاصة، لا لسائر البلد الذي فيه البيت.

والظاهر عندي أن بكة اسم بمعنى البلدة وضعه إبراهيم علماً على المكان الذي عَيَّنَهُ لسكنى ولده بِنِيَّة أن يكون بلداً؛ فيكون أصله من اللغة الكلدانية: لغة

---

١ ـ قد يتصور في ذلك تعدد، كحال من ينقذ أكثر من غريق في حالة هول البحر، وقد وقع ذلك في حادثة غرق الباخرة المصرية (السلام ٩٨) في ١٤٢٧/١/٤هـ حيث أنقذ بعضُ ركّابها الأشاوس ممن أعرفهم في بلدنا الزلفي عدداً كبيراً من الركاب الذين أشرفوا على الهلاك. (م)

إبراهيم، ألا ترى أنهم سموا مدينة (بعلبك) أي بلد بعل، وهو معبود الكلدانيين.

ومن إعجاز القرآن هذا اللفظ عند ذكر كونه أولَّ بيتٍ؛ فلاحظ ـأيضاًـ الاسم الأول، ويؤيد قوله: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ﴾ وقوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِناً﴾. وقد قيل: إن بكة مشتق من البك، وهو الازدحام، ولا أحسب قصد ذلك لواضع الاسم. ٤/١٢ـ١٣

٢٠ـ **والبطانة بكسر الباء**: في الأصل داخل الثوب، وجمعها بطائن، وفي القرآن ﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وظاهر الثوب يسمى الظهارة بكسر الظاء، والبطانة ـأيضاًـ الثوب الذي يجعل تحت ثوب آخر، ويسمى الشعار، وما فوقه الدثار، وفي الحديث «**الأنصار شعار والناس دثار**».

ثم أطلقت البطانة على صديق الرجل، وخصيصه الذي يطلع على شؤونه؛ تشبيهاً ببطانة الثياب في شدة القرب من صاحبها.

ومعنى اتخاذهم بطانةً أنهم كانوا يخالفونهم، ويودونهم من قبل الإسلام؛ فلما أسلم من أسلم من الأنصار بقيت المودة بينهم وبين من كانوا أحلافهم من اليهود، ثم كان من اليهود من أظهروا الإسلام، ومنهم من بقي على دينه. ٤/٦٣

٢١ـ **والطمأنة والطمأنينة**: السكون، وعدم الاضطراب. ٤/٧٨

٢٢ـ **وحكمة تحريم الربا**: هي قصد الشريعة حمل الأمة على مواساة غَنِيِّها محتاجَها احتياجاً عارضاً موقتاً بالقرض؛ فهو مرتبة دون الصدقة، وهو ضرب من المواساة إلا أن المواساة منها فرض كالزكاة، ومنها ندب كالصدقة والسلف؛ فإن انتدب لها المكلف حَرُمَ عليه طلبُ عوضٍ عنها.

وكذلك المعروف كله، وذلك أن العادة الماضية في الأمم -وخاصة العرب- أن المرء لا يتداين إلا لضرورة حياته؛ فلذلك كان حق الأمة مواساته.

والمواساة يظهر أنها فرض كفاية على القادرين عليها، فهو غير الذي جاء يريد المعاملة للربح كالمتبايعين والمتقارضين؛ للفرق الواضح في العرف بين التعامل وبين التداين، إلا أن الشرع مَيَّز هاته المواهي(١) بعضها عن بعض بحقائقها الذاتية، لا باختلاف أحوال المتعاقدين.

فلذلك لم يسمح لصاحب المال في استثماره بطريقة الربا في السلف، ولو كان المستسلف غير محتاج، بل كان طالب سعة وإثراء بتحريك المال الذي يتسلَّفه في وجوه الربح والتجارة ونحو ذلك، وسمح لصاحب المال في استثماره بطريقة الشركة والتجارة ودَيْنِ السَّلَم، ولو كان الربح في ذلك أكثر من مقدار الربا؛ تفرقة بين المواهي الشرعية.

ويمكن أن يكون مقصد الشريعة من تحريم الربا البعد بالمسلمين عن الكسل في استثمار المال، وإلجاؤهم إلى التشارك والتعاون في شؤون الدنيا؛ فيكون تحريم الربا ولو كان قليلاً، مع تجويز الربح من التجارة والشركات ولو كان كثيراً؛ تحقيقاً لهذا المقصد. ٤/٨٦-٨٧

٢٣- ولقد قضى المسلمون قروناً طويلة لم يروا أنفسهم فيها محتاجين إلى التعامل بالربا، ولم تكن ثروتهم أيامئذ قاصرة عن ثروة بقية الأمم في العالم، أَزْمَانَ كانت سيادة العالم بيدهم، أو أزمان كانوا مستقلين بإدارة شؤونهم، فلما

١ - المواهي: جمع ماهية، وماهية الشيء حقيقته. (م)

صارت سيادة العالم بيد أمم غير إسلامية، وارتبط المسلمون بغيرهم في التجارة والمعاملة، وانتظمت سوق الثروة العالمية على قواعد القوانين التي لا تتحاشى المراباة في المعاملات، ولا تعرف أساليب مواساة المسلمين ـ دهش المسلمون، وهم اليوم يتساءلون، وتحريم الربا في الآية صريح، وليس لما حرمه الله مبيح.

ولا مخلص من هذا المضيق إلا أن تجعل الدول الإسلامية قوانين مالية تُبنى على أصول الشريعة في المصارف، والبيوع، وعقود المعاملات المركبة من رؤوس الأموال وعمل العمال، وحوالات الديون، ومقاصتها، وبيعها.

وهذا يقضي بإعمال أنظار علماء الشريعة والتدارس بينهم في مجمع يحوي طائفة من كل فرقة كما أمر الله ـ تعالى ـ. ٨٧/٤

٢٤ـ **وقد أجرى على المتقين صفات ثناء وتنويه** هي ليست جماع التقوى، ولكن اجتماعها في محلها مؤذن بأن ذلك المحل الموصوف بها قد استكمل ما به التقوى، وتلك هي مقاومة الشح المطاع، والهوى المتَّبع.

الصفة الأولى: الإنفاق في السراء والضراء.

والإنفاق تقدم غير مرة وهو الصدقة، وإعطاء المال، والسلاح، والعدة في سبيل الله.

والسراء: فعلاء، اسم لمصدر سره سراً وسروراً.

والضراء: كذلك من ضره، أي في حالي الاتصاف بالفرح والحزن، وكأن الجمع بينهما هنا لأن السراء فيها ملهاة عن الفكرة في شأن غيرهم، والضراء فيها ملهاة وقلة مَوجدة.

فملازمة الإنفاق في هذين الحالين تدل على أن محبة نفع الغير بالمال، الذي هو عزيز على النفس، قد صار لهم خلقاً لا يحجبهم عنه حاجب، ولا ينشأ ذلك إلا عن نفس طاهرة.

الصفة الثانية: الكاظمين الغيظ.

وكظم الغيظ: إمساكه، وإخفاؤه حتى لا يظهر عليه، وهو مأخوذ من كَظَمَ القربة إذا ملأها وأمسك فمها، قال المبرد: فهو تمثيل الإمساك مع الامتلاء.

ولا شك أن أقوى القوى تأثيراً على النفس القوةُ الغاضبةُ؛ فتشتهي إظهار آثار الغضب، فإذا استطاع إمساك مظاهرها، مع الامتلاء منها دل ذلك على عزيمة راسخة في النفس، وقهر الإرادة للشهوة، وهذا من أكبر قوى الأخلاق الفاضلة.

الصفة الثالثة: العفو عن الناس فيما أساؤوا إليهم.

وهي تكملة لصفة كظم الغيظ بمنزلة الاحتراس؛ لأن كظم الغيظ قد تعترضه ندامة؛ فيستعدي على من غاظه بالحق، فلما وُصِفوا بالعفو عمن أساء إليهم دل ذلك على أن كظم الغيظ وصفٌ متأصِّل فيهم، مستمر معهم.

وإذا اجتمعت هذه الصفات في نفسٍ سَهُلَ ما دونها لديها.

وبجماعها يجتمع كمال الإحسان ولذلك ذيّل الله -تعالى- ذكرها بقوله: ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ لأنه دال على تقدير أنهم بهذه الصفات محسنون والله يحب المحسنين.٤/٩٠-٩١

٢٥- ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ

يَعْلَمُونَ(١٣٥)﴾.

إن كان عطف فريق آخر فهم غير المتقين الكاملين، بل هم فريق من المتقين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وإن كان عطف صفات، فهو تفضيل آخر لحال المتقين بأن ذكر أولاً حال كمالهم، وذكر بعده حال تداركهم نقائصهم.

٩٢_٩١/٤

٢٦ـ ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ(١٤٣)﴾.

كلام ألقي إليهم بإجمال بالغ غاية الإيجاز، ليكون جامعاً بين الموعظة، والمعذرةِ، والملامِ.

والواوُ عاطفةٌ أو حالية، والخطاب للأحياء لا محالة الذين لم يذوقوا الموت، ولم ينالوا الشهادة، والذين كان حظُّهم في ذلك اليوم هو الهزيمةَ، فقوله: ﴿كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ أريد به تمني لقاء العدو يوم أحد، وعدم رضاهم بأن يتحصنوا بالمدينة، ويقفوا موقف الدفاع، كما أشار به الرسول ـعليه الصلاة والسلامـ ولكنهم أظهروا الشجاعة وحب اللقاء، ولو كان فيه الموت؛ نظراً لقوة العدو وكثرته؛ فالتمني هو تمني اللقاء، ونصر الدين بأقصى جهدهم.

ولما كان ذلك يقتضي عدم اكتراث كل واحد منهم بتلف نفسه في الدفاع؛ رجاء أن يكون قبل هلاكه قد أبلى في العدو، وهيأ النصر لمن بقي بعده ـ جعل تمنيهم اللقاء كأنه تمني الموت من أول الأمر؛ تنزيلاً لغاية التمني منزلة مبدئه.

١٠٨_١٠٧/٤

٢٧ـ **واللين هنا**: مجاز في سعة الخلق مع أمة الدعوة والمسلمين، وفي الصفح

عن جفاء المشركين، وإقالة العثرات. ٤/١٤٥

٢٨ـ **أرسل محمد ﷺ مفطوراً على الرحمة؛** فكان لينه رحمة من الله بالأمة في تنفيذ شريعته بدون تساهل وبرفق وإعانة على تحصيلها؛ فلذلك جعل لينه مصاحباً لرحمة من الله أودعها الله فيه؛ إذ هو قد بعث للناس كافة، ولكن اختار الله أن تكون دعوته بين العرب أول شيء لحكمة أرادها الله ـتعالى ـ في أن يكون العرب هُمْ مُبَلِّغي الشريعةِ للعالم.

والعرب أمة عرفت بالأنفة، وإباء الضيم، وسلامة الفطرة، وسرعة الفهم.

وهم المتلقون الأولون للدين؛ فلم تكن تليق بهم الشدة والغلظة، ولكنهم محتاجون إلى استنزال طائرهم في تبليغ الشريعة لهم؛ ليتجنبوا بذلك المكابرة التي هي الحائل الوحيد بينهم وبين الإذعان إلى الحق.

وورد أن صفح النبي ﷺ وعفوه ورحمته كان سبباً في دخول كثير في الإسلام، كما ذكر بعض ذلك عياض في كتاب الشفاء. ٤/١٤٥

٢٩ـ **والذوق حقيقته:** إدراك الطُّعوم، واستعمل هنا مجازاً مرسلاً في الإحساس بالعذاب؛ فعلاقته الإطلاق، ونكتته أن الذوق في العُرْف يستتبع تكرر ذلك الإحساس؛ لأن الذوق يتبعه الأكل، وبهذا الاعتبار يصح أن يكون ﴿ذُوقُوا﴾ استعارة.

وقد شاع في كلام العرب إطلاق الذوق على الإحساس بالخير أو بالشر، وورد في القرآن كثيراً. ٤/١٨٤ـ١٨٥